إيساغوجي

لفرفريوس الصوري نقل أبي عثمان الدمشقي

مع حياة فرفريوس وفلسفته وصلة مدخله بمدخل
ابن سينا بمناسبة عيده الألفي

بقلم
الدكتور أحمد فؤاد الأهواني
أستاذ الفلسفة المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

[القاهرة ١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م]

ملتزمو النشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

فى موكب ابن سينا

اهتز الشرق العربى حين اقتربت الذكرى الألفية لمولد الشيخ الرئيسى أبى علىّ ابن سينا ، اعتزازاً بفيلسوفها وطبيبها ، صاحب الذكر والصيت والشهرة فى تاريخ الإنسانية ، فرأت وزارة المعارف المصرية أن تحيى ذكراه بأن تنشر مؤلفاته نشراً علمياً حديثاً ، وبدأت بنشر وتحقيق كتاب الشفاء ، فعهدت إلى لجنة كنتُ أحد أعضائها بتنفيذ هذا العمل . فلما اجتمعت لدى اللجنة المخطوطات المصورة عن شتى مكتبات العالم ، أخذت فى تحقيق أول كتاب من منطق الشفاء ، وهو المسمى « المدخل » ويضم منطق الشفاء تسعة كتب هى المدخل والمقولات والعبارة والقياس والبرهان والجدل والسفسطة والخطابة والشعر ، يتألف من جملتها ما يُعْرف بالأرجانون ، الذى يضم أجزاء المنطق .

وقد استعانت اللجنة فى تحقيق كتاب المدخل لابن سينا ، إلى جانب المخطوطات الكثيرة التى رجعت إليها ، بالترجمة اللاتينية لهذا الكتاب ، والتى عرفها الأورو بيون فى العصر الوسيط ، وتهيئها مدموازيل دالفرنى للنشر .

ورجعت اللجنة كذلك إلى « إيساغوجى » لفرفريوس ، فتبين لها من هذه المراجعة أنَّ ابن سينا فى مدخله « قد حاكى إيساغوجى ، والتزم ترتيبه ، بل و بعض تعبيراته بنصها[1] » . و بناء على ذلك وُضع فهرس النصوص مشيراً إلى أمثلة هذه المحاكاة ، فأوردت بعض عبارات «المدخل» لابن سينا ، وما يقابلها فى «إيساغوجى» لفرفريوس ، مع الاعتماد على الترجمة العربية لأبى عثمان الدمشقى .

(١) ابن سينا : المدخل ، المطبعة الأميرية ١٩٥٢ ، ص ١٢١

وإنى إذْ أقدم مدخل أو « إيساغوجى » فرفريوس لقراء العربية ، وللمشتغلين بالفلسفة، ولأولئك الذين يحتفلون بذكرى ابن سينا بقراءة أول كتاب تطبعه الحكومة المصرية ، ونعنى به « المدخل » ، وهو أول « الشفاء » ، إنما أعينهم على فهم كلام ابن سينا الذى لا ينفك يرجع إلى صاحب إيساغوجى آخذاً عنه تارة ، ناقداً إياه تارة أخرى ، قادحاً فيه وذامًّا له تارة ثالثة . ولن تتيسر فهم هذه الإشارات والغمزات على الوجه الصحيح إلا إذا كان الكتاب الأصلى الذى اعتمد عليه الشيخ الرئيس ماثلاً أمام أعيننا . هذا فضلاً عن أن التحقيق التاريخى الذى يُقْصد لذاته ، مع قطع النظر عن سائر الاعتبارات الأخرى ، يقتضى نشر جميع التراث القديم ، حتى نستكمل معرفة حضارة العرب الفكرية . ويزيد فى رونق هذا العمل أنْ يخرج هذا الكتاب فى موكب الذكرى الألفية لابن سينا ، فيستضىء بنور الشيخ الرئيس ، لأنَّ فرفريوس فى حاجة حقاً إلى أنوار تشرق عليه ، إنْ فى سيرته ، وإنْ فى آرائه ، وبخاصة إذا عرفنا أنه كان من الفلاسفة المغمورين ، الذين لم يتألق لهم نجم .

وإذا كان نجم فرفريوس قد أفل من زمن طويل ، فإنَّ كتابه إيساغوجى ، أو قل اسم كتابه ، ظل متألقاً عند العرب حتى العصر الحديث . فلا يزال إيساغوجى متدارساً معروفاً عند الأزهريين ، ولو أنَّ إيساغوجى الذى يُدْرس اليوم لا يمت بصلة إلى إيساغوجى فرفريوس إلا من جهة الاسم .

وأود ، وأنا أزف هذا الكتاب فى موكب الرئيس ابن سينا ، أن أتقدم بالشكر إلى أعضاء اللجنة التى عملنا معاً فى تحقيق المدخل ، فأشكر رئيسها الدكتور إبراهيم مدكور على ما قام به من توجيه نافع ، وصديقىَّ الأب قنواتى ومحمود الخضيرى على معونتهما الصادقة وزمالتهما الأخوية .

يناير ١٩٥٢

فرفريوس الصّوري

حياته وفلسفته

حياة فرفريوس

فى المراجع

يكتنف حياةَ فرفريوس غموض كثير ، بحيث يصبح من العسير باسم البحث العلمى الجزمُ بوقائع شتى من سيرته . وترجع العلة فى ذلك إلى أنَّ أحداً من تلاميذه أو أصدقائه أو معاصريه لم يكتب عنه ، مع أنه كان صاحب الفضل فى تدوين سيرة أستاذه أفلوطين ، ولولا هذه السيرة ، لظلت معرفتنا بأفلوطين يسيرة غامضة .

وتُعَدُّ سيرةُ أفلوطين التى دوَّنها فرفريوس مرجعاً كذلك لحياة فرفريوس ، نستطيع منها استخلاص الشىء الكثير .

وأول مَنْ دوَّن سيرة فرفريوس هو « إينابيوس » Eunapius ، الذى كتب أخبار الفلاسفة بعد مائة عام من وفاة فرفريوس ، ولجأ بلا ريب فى تحقيقه عنه إلى « سيرة أفلوطين » ، وإلى رسالة فرفريوس إلى زوجته « مارسيلا » ، وإلى بعض كتبه الأخرى التى كانت موجودة بين يديه فى ذلك الوقت . وهذه السيرة التى كتبها إينابيوس ، هى على إيجازها دقيقة وصحيحة إلى حد كبير . ولم تكن « سيرة أفلوطين » هى المرجع الوحيد الذى استقى منه إينابيوس حياة فرفريوس ، لأنه يذكر بعض الحقائق عن شبابه ، لانجدها فى أى مصدر آخر .

وقد احتفظ لنا « إيسيبيوس » Eusebius [٢٦٥ — ٣٤٠] فى كتابه « تاريخ الكنيسة » ، وفى كتبه الأخرى التى دافع فيها عن المسيحية ضد المذاهب الوثنية ، ببعض نصوص نقلها عن كتب فرفريوس . أصبح « إيسيبيوس » أسقف مدينة

قيسارية من أعمال فلسطين منذ عام ٣١٥ ، وعاصر جزءا من حيـاة فرفريوس ، وأكبر الظن أنه التقى به ، ولـكنه تحامل عليه ، وكان صاحب الأثر فى تشويه سمعته فى العالم المسيحى طوال العصر الوسيط .

عرف العرب فرفريوس وترجموا له ، ولـكنها ترجمة موجزة لاتـكشف عن سيرته شيئاً . قال ابن النديم فى الفهرست عند الـكلام عن فرفريوس إنه : « بعد الإسكندر وقبل أمونيوس ، من أهل مدينة صور . وكان بعد جالينوس . وفسر كتب أرسطاليس ، وقد ذكرناها فى الموضع الذى ذكرنا فيه أرسطاليس . وله من الـكتب بعد ذلك : كتاب إيساغوجى فى المدخل إلى الـكتب المنطقية . كتاب المدخل إلى القياسات الحملية نقل أبى عثمان الدمشقى . كتاب العقل والمعقول بنقل قديم . كتابان إلى أنابو . كتاب الرد على سحسوس (؟) فى العقل والمعقول سبع مقالات سريانى . كتاب الأسطقسات مقـالة سريانى . كتاب أخبار الفلاسفة ، ورأيت منه المقالة الرابعة ، سريانى[1] » .

ونقل القفطى[2] ما ذكره ابن النديم بنصه وبخاصة كتبه ، ثم أضاف إلى ذلك يمدحه فقال يذكر سبب شرحه كتب أرسطو « ولـما صعب على أهل زمانه معرفة كلام أرسطوطاليس ، شكوا إليه ذلك من الأماكن النازحة عنه ، وذكروا سبب الخلل الداخل عليهم . ففهم ذلك ، وقال : كلام الحـكيم يحتاج إلى مقدمة قصر عن فهمها طلبة زماننا لفساد أذهانهم ، وشرع فى تصنيف كتاب إيساغوجى ، فأخذ عنه ، وأضيف إلى كتب أرسطوطاليس ، وجُعِل أولا لها ، وسار مسير الشمس إلى يومنا هذا » . وقد وصفه القفطى فى أول الترجمة بصفتين فقال « له النباهة فى علم الفلسفة ، والتقدم فى معرفة كلام أرسطوطاليس » . غير أن كلا من ابن النديم والقفطى لم

(١) ابن النديم : الفهرست ، المطبعة الرحمانية ١٣٤٨هـ ، ص ٣٥٤ و ٣٥٥

(٢) القفطى : أخبار الحكماء ، مطبعة السعادة ١٣٢٦ هـ ، ص ١٦٩

يحددا مولده ، فهو عند القفطى « بعد زمن جالينوس » . وجالينوس [١٢٩ — ١٩٩ بعد الميلاد] هو الطبيب المشهور ، وله مشاركة فى المنطق إذ وضع الشكل الرابع للقياس .

ولم يذكر ابن النديم والقفطى من بعده جميع مؤلفات فرفريوس ، إلا أنّ روايته ذات قيمة كبيرة من وجهة النظر الإسلامية ، لأنها تبين أولا عدد الكتب التى نُقِلت إلى العربية ، وتبين ثانياً أنها كانت عن طريق السريانية لا اليونانية .

وقد كشف المحدثون فى بحوثهم الستار عن حياة فرفريوس وآرائه ، فنشروا ما بقى من كتبه باللغة اليونانية مع تراجم لها ، وعقد « بيديز » Bidez [1] تحقيقاً وافياً « لحياة فرفريوس » رجع فيه إلى جميع الدراسات الفرعية عنه ، فجاء كتابه شاملا وافياً . أما كتب تاريخ الفلسفة التى عرضت حياة فرفريوس وفلسفته وكتبه ، فلا يزيد ماجاء فيها عن الصفحة أو الصفحات ، ومرجعها فى ذلك هو بيديز . اللهم إلا « بريه » Bréhier ، فإنه بسط حياة فرفريوس بعض الشىء ، فى مقدمة كتابه عن أفلوطين الذى نقل فيه التاسوعات ، ونقل كذلك « سيرة أفلوطين » التى كتبها فرفريوس . ولم يكن ماذكره مقصوداً لذاته ، بل جاء فى ثنايا كلامه عن أفلوطين . وكذلك فعل « إنج » Inge [2] فى كتابه عن فلسفة أفلوطين ، حيث كتب بضعة صفحات عن فرفريوس ، من حيث صلته بأستاذه .

من هذا كله نتبين الصعوبة التى يواجهها المؤرخ فى تحقيق سيرة فرفريوس . ولذلك قال بيديز : « لانملك إلا أن نصف فرفريوس كما يبدو من خلال كتبه ، فنصف الرجل المجادل ، والمذيع الآراء ، والمحاضر . . . [3] »

---

(1) Bidez : Vie de Porphyre, Leipzig , 1913 , 165 + 63 p .

(2) Inge : The Philosophy of Plotinus, 2 Volumes, London, 1929

(٣) بيديز : ص ٤

مولده وشبابه

ولد فرفريوس عام ٢٣٢ أو ٢٣٣ بعد الميلاد . عرفنا ذلك من رواية فرفريوس حيث ذكر فى « سيرة أفلوطين » مانصه : « فى العام العاشر من حكم جاليانوس Gallianus وصلت من اليونان بصحبة أنطونيوس الروديسى ، وقابلت أميليوس Amelius الذى كان قد اتصل بأفلوطين منذ ثمانية عشر عاماً ، ولكنه لم يكتب بَعْد إلا دروسه التى لم تبلغ المائة . وكانت سن أفلوطين تقرب من التاسعة والخمسين فى ذلك العام العاشر من حكم جاليانوس . وحين قابلته لأول مرة ، كنتُ فى الثلاثين من عمرى . . . . .[1] »

وفرفريوس هو الذى قال عن نفسه إنه الصورى . وذلك فى الفقرة السابعة من سيرة أفلوطين ، التى ذكر فيها تلاميذ الأستاذ ووصفهم ، ثم انتهى إلى الحديث عن نفسه قائلا : « وأنا أيضاً ، فرفريوس الصورى ، كان أفلوطين يعدنى من خاصة أصدقائه ، وعهد إلىّ بتصحيح كتاباته[2] »

وذهب بعض المؤرخين المسيحيين إلى أنَّ موطنه الأصلى من « البَتَنِيَّة » وهى قرية بالقرب من دمشق ، ومنها ذهب إلى صور فأصبح ينسب إليها . قال الاصطرخى فى المسالك والممالك ، وابن حوقل : « إن عامة حكماء اليونانية كانوا منها » . وذكر القلقشندى مثل ذلك ، مما يدل على شهرة صور عند المسلمين بأنها كانت مركزاً للفلسفة اليونانية . والحق أنها كانت فى القرن الثالث مع مدن ساحل فينيقيا معارضة للدين المسيحى الجديد ، وظلت تدافع عن العقائد والطقوس الوثنية .

وقد ذهب بعض المؤرخين المسيحيين إلى أن فرفريوس ولد من أبوين مسيحيين

(1) Bréhier Vie de Plotin, Tome I,p 4-5.
(2) Vie de Plotin : p 11

ثم ارتد . ولو كان ذلك صحيحاً لرواه لنا فرفريوس ، كما روى أنّ أفلوطين أخذ الفلسفة عن « أمونيوس ساكاس » الذى ارتد عن المسيحية .

ويروى « إينابيوس » أنّ فرفريوس ينحدر من أسرة شريفة ، فأبوه يسمى «ملكوس » Malchos ، وهى بالسريانية تعنى الملك أو الأمير ؛ وقد أخذ إينابيوس هذه الرواية عن فرفريوس الذى قال فى « سيرة أفلوطين » ما نصه : إنّ أميليوس كتب رسالة بعنوان « فى الفرق بين مذهبى أفلوطين ونومينيوس » أهداها إلىّ باسم باسيليوس Basileus . الحق أن اسمى هو باسيليوس . أما فى لسان قومى فهو « ملكو Malko » وهو أيضاً اسم أبى . و « ملكوس » هو « باسيليوس » باليونانية [١] .

ثم أمضى شبابه فى صور ، التى ازدهرت بالتجارة والصناعة ، وكانت ملتقى الشرق بالغرب ، فاجتمعت فيها الآراء والمذاهب ، وكثرت اللهجات . فإلى جانب اللغة السريانية ، وهى لغة أهل البلاد ، كان فرفريوس يعرف العبرانية واليونانية ، بل والهيروغليفية ، واطلع على أسرار الكلدانيين والفرس وقدماء المصريين . وكانت معرفته بسائر الأديان الموجودة فى ذلك الوقت معرفةً واسعة دقيقة لا تتيسر من الاطلاع فى الكتب فقط ؛ وقد ظهر أثر ذلك فى مؤلفاته فيما بعد .

ويقال إنه اتصل بـ « أوريجين » فى صباه . ولد أوريجين [١٨٣ — ٢٥٣] من أب وثنى وأم مسيحية بالإسكندرية ، ودرس الفلسفة مع أفلوطين على أمونيوس ساكاس ثم استقر عام ٢١٦ فى مدينة قيسارية من أعمال فلسطين ، حيث أخذ يعلم المسيحية ، ويبشر بها . وتُعْزَى معرفة فرفريوس للإنجيل إلى صلته بأوريجين الذى كان يفسر الإنجيل مستعيناً بالفلسفة اليونانية . وهذه المعرفة الوثيقة بالديانة المسيحية هى التى

---

(١) سيرة أفلوطين ص ١٧ — وهذا هو الرسم اليونانى للفظة ملكوس ، وهى تصرف حسب موضعها من الكلام فتحذف السين الموجودة فى آخرها . وكتبها يوسف كرم فى تاريخ الفلسفة اليونانية ملخوس بالخاء ، ولعلها تنطق كذلك .

جعلت بعض المؤرخين يذهبون إلى القول بمسيحية فرفريوس ثم ارتداده . وقد يسرت صلة فرفريوس بأوريجين فى قيسارية أن يطلع على مكتبة واسعة فيها مؤلفات قدماء فلاسفة اليونان ومحدثيهم، أوعلى حدعبارة فرفريوس التى نقلهاعنه «إيسيبيوس» أنَّ أوريجين كان يعيش بين كتب أفلاطون ، ونومنيوس ، وكرونيوس،وأبولوفانوس، ولونجيوس ، ومشاهير الفيثاغوريين . وكان يستعين بكتب شيرومون الرواقى وكورنوتوس . وقد يسرت له هذه الكتب تأويل الأساطير اليونانية ، فطبق هذه الطريقة على العهد القديم (١) .

ولم يكن أوريجين هو الفيلسوف الوحيد الذى التقى به فى قيسارية ، إذ لابد أنه اتصل بغيره، سواء فى قيسارية أم فى غيرها من مدن فلسطين وسوريا ؛ بل يقال إنه زار الإسكندرية ، ولو أن السند التاريخى يعوزنا . وفى هذا العهد ، قبل أن يرحل إلى أثينا ويتصل بلونجينوس، وقبل أن يذهب إلى روما ويلتقى بأفلوطين ، ألف كتابه عن « فلسفة الكهانة » .

فى أثينا

رأينا أنَّ فرفريوس حصَّل فى شبابه جملةَ المعارف الدينية والفلسفية التى ذاعت فى مدن فلسطين وسوريا . ولم تكن السريانية هى لغة العلم والفلسفة ، إذ لم يبدأ النقل إليها عن اليونانية إلا فى القرن الخامس . ولم تكن معرفة فرفريوس باليونانية وثيقة ، ولم تكن جميع الكتب موجودة فى الشرق ، فدفعه طموحه إلى استكمال علمه بالصلة المباشرة بالفلسفة اليونانية ، فعزم على السفر إلى أثينا التى كانت مركز المدارس المتخلفة عن أفلاطون وأرسطو ، وملتقى ومنتدى

(1) Vacherot, Hist . critique de l,école d'Alexandrie

نقلا عن بيديز ص ٣٥

هواة الفن ، وطلاب الأدب ، وعشاق الفكر الخالص . تلقى فرفريوس العلم فى أثينا على كثيرين منهم ديمتريوس الرياضى ، وأبولونيوس النحوى ، ومينكيانوس معلم الخطابة . ولكن أعظم أساتذته فى نفسه أثراً هو لونجينوس Longinus ، الذى ذاعت شهرته ، وطار صيته فى الفلسفة والخطابة والأدب ، حتى لقد وصفه إينابيوس بأنه « مكتبة حية متحركة » لكثرة حفظه ، وصحة روايته من صفحة الذاكرة .

وقد نقل إلينا إيسيبيوس عن فرفريوس وصفاً دقيقاً لمأدبة أقامها لونجينوس احتفالا بذكرى ميلاد أفلاطون ، وكان بين حضورها ديمتريوس وأبولونيوس وفرفريوس ، ودار فيها الحديث حول مسائل كثيرة فلسفية وأدبية .

درس فرفريوس على لونجينوس أسرار اللغة الإغريقية ، ومافيها من نحو وصرف وبلاغة ، كما درس عليه أعمق الأفكار الفلسفية وأدقها ، حتى لقد وصف أحدُ المحدثين فرفريوس بقوله : « يشم المرء فى فرفريوس السريانى عبير الآلهة الإغريقية » ولاريب أن أعظم الفضل فى ثقافة فرفريوس اليونانية يرجع إلى أستاذه لونجينوس ؛ فقد اكتسب من إقامته فى أثينا معرفة واسعة ، وذوقا مرهفا ، إلى سهولة عرض ، وقوة جدل ، مما جعله يرتفع إلى الصف الأول فى مدرسة أفلوطين .

ولم تنقطع صلة فرفريوس بلونجينوس فيما بعد ، بل ظل يحمل له أعظم التقدير . يقال إنه استشاره فى الذهاب إلى أفلوطين ، فنصحه لونجينوس بالتوجه إليه ، وأبدى رأيه فى فلسفة أفلوطين مقدراً بعضها معترضاً على بعضها الآخر ، ولكنه استحسن منه أسلوبه فى الكتابة ، وغزارة آرائه ، وطريقته فى البحث عن الحقيقة . وظل فرفريوس محتفظاً بصلات وثيقة مع أستاذه فى أثينا ، فكان يراسله من مدرسة أفلوطين فى روما .

فى هذه الفترة التى قضاها فرفريوس فى أثينا ألف كتاب « المسائل الهومرية » ورسالة « فى أسماء مَنْ لم يذكرهم الشعراء » ، وكتاب « أخبار الفلاسفة » .

فى مدرسة أفلوطين

كانت روما عاصمة الإمبراطورية ، وقلب العالم المتحضر فى ذلك الزمان ، فاجتذبت إليها كثيراً من العلماء والفلاسفة والمفكرين ، ومن جملتهم فرفريوس الذى اتخذها قبلته ، فحج إليها فى قيظ الصيف ؛ وكان أفلوطين غائباً عن المدرسة ، فاستقبله تلميذه أميليوس .

وكان دخول المدرسة مباحاً لكل راغب ، كما ذكر فرفريوس فى افتتاح سيرة أفلوطين التى بدأها بقوله : إنه كان يخجل أن يكون فى جسم ، وأبى أن يقف أمام مصور أو مثّال . فلما طلب منه أميليوس أن يُصَوَّر أجابه : « ألا يكفى أن نحمل هذه الصورة التى خلعتها علينا الطبيعة . أمن الواجب أن نحتفظ من هذه الصورة بصورة أكثر دواماً كأنها تستحق النظر ». فلما رفض أفلوطين ، عهد أميليوس إلى صديق له اسمه « كاتريوس » يجيد الرسم وأدخله إلى المدرسة يستمع إلى دروس أفلوطين . و« كانت الدروس مباحة لكل طارق » .

جمعت روما فى ذلك العصر بين الحركة الصاخبة ، والجمال الساحر الذى يبدو فى تماثيلها وميادينها وأبنيتها ، والمتعة التى يبغيها طلاب اللذة وأهل الدنيا ، وبين الهدوء الذى ينشده الزهاد المنصرفون عن لذات الجسد إلى متعة الروح ، يلتمسونها فى العزلة ، والتأمل ، والنظر فى بطون الكتب . واتجه فرفريوس إلى هذه الجماعة يعيش بينها حتى يتابع طلبه العلم فى المدرسة .

اجتذب أفلوطين إلى المدرسة كثيراً من علية القوم ، منهم الإمبراطور جالينوس وزوجته ، وكذلك بعض النساء تسمى إحداهن جمانا Gemina ، التى كان أفلوطين يسكن فى دارها

كان هدف أفلوطين من المدرسة أن تكون نبراساً يهدى النفوس إلى التقوى والصلاح ، فكان يصرف تلاميذه عن الاشتغال بالسياسة وأمور الدنيا ، ويحملهم على حياة من الزهد توصل إلى شفاء النفس ، وذلك بالتجرد عن جميع العلائق وإماتة سائر الشهوات . وكان هو نفسه مهملاً أمر جسده محتقراً إياه ، ولا يأكل اللحم . وكثيراً ماتأثر بعض التلاميذ بهذه التعاليم حتى لقد روى لنا فرفريوس قصة « روجاتيانوس » الذى كان عضواً فى مجلس الشيوخ فنزل عن أملاكه وأمواله وعبيده وألقابه ، وبلغ من الزهد حداً جعله لا يأكل إلا مرة واحدة فى كل يومين .

وتقع طريقة التدريس فى أنّ أفلوطين كان يلقى محاضراته ، ويدعو تلامذته إلى طرح الأسئلة عليه ، فيجيب عنها فى رقة وطلاوة وسلاسة عبارة . ويروى فرفريوس أنه سأله ذات مرة عن علاقة النفس بالجسد فظل ثلاثة أيام يجيب عن أسئلته بدون ملل .

واستطاع فرفريوس بما كان عليه من ذكاء ، وما حصّله من علم ، إلى حماسته فى الجدل ، وحسن أثره فى الحديث ، أنْ يجذب إليه أنظار أفلوطين ، حتى اتخذه من جملة خاصته ، وعهد إليه بتصحيح كتبه .

ولم يكن من اليسير أن يتحول فرفريوس من تعاليم لونجينوس إلى مذهب أفلوطين فى زمن قصير . فقد تعلم فى أثينا أنّ المُثل الأفلاطونية توجد خارج العقل . وهذا التفسير لمذهب أفلاطون يميز تمييزاً حاسماً بين العقل والمعقولات ، مما دفع أفلوطين إلى محاولة التوحيد بينهما ، فجعل « الواحد » على رأس الوجود ، وعنه تصدر سائر الموجودات . فلما لم يقتنع فرفريوس بالمذهب الجديد ، ألّف رسالة يعرض فيها وجهة نظره ، نعنى وجود المعقولات خارج العقل . ودفع أفلوطين بالرسالة إلى أميليوس وطلب منه أن يقرأها على الطلبة ، وأن يرد عليها . وقرأ فرفريوس الرد على اعتراضاته

ولم يقتنع ؛ فكتب رسالة أخرى ، رد عليها أميليوس . وانتهى فرفريوس إلى أن قال : « وأخيراً حصلت بعد جهد مذهب أفلوطين ، فعدلت عن رأيي . ووثقت منذ ذلك الحين بتعاليم أفلوطين » .

يتبين من هذا أنَّ حياة المدرسة كانت شديدة الجدل ، وأنَّ روح البحث الحر كانت سائدة ، وأن الطلبة كانوا يتعلمون كتابة المقالات و إنشاء الرسائل .

وطريقة أخرى فى التعليم هى قراءة نصوص الفلاسفة ، قدماء ومحدثين ، وشرحها . ولم يكن الشرح جامداً شكلياً كما درج فلاسفة العصر الوسيط ، بل كان أفلوطين يقطع قراءة النص فجأة ، ثم يقف يبدى تعليقات واعتراضات وتأملات تدل على عمق و إشراق ، مستلهماً فى ذلك روح أستاذه أمونيوس ساكاس .

كان أفلوطين يعهد إلى فرفريوس بأهم الأبحاث ، فعهد مرة إليه أن يرد على ديوفان Diophane الذى دافع عن ألقبيادس فى « مأدبة أفلاطون » وقرىء رد فرفريوس على طلبة المدرسة ، و بلغ من استحسان أفلوطين أن صفق له ، وطلب من الحاضرين أن يصفقوا له كذلك ، وقال له « سوف تصبح نوراً للناس » .

فلا غرابة أن يتدرب فرفريوس على شرح أفلاطون وأرسطو ، وأن تنبت فى نفسه فكرة وضع شروح على كتب المعلم الأول وصاحب الأكاديمية ، وأصبحت هذه الشروح فيما بعد تؤلف أكثر من نصف كتابات فرفريوس .

ومما يرويه لنا فرفريوس فى سيرة أفلوطين أن أميليوس كان يشرح ذات مرة « طيماوس » فعرض مسألة بدت عسيرة الحل ، ودخل فرفريوس الدرس فى ذلك الوقت ، و بيَّن أن قراءة النص خطأ ، فانحلت المسألة ، و برز بذلك على أميليوس . وتدل هذه الرواية على رسوخ قدم فرفريوس فى معرفة النصوص الفلسفية ، وامتلاك ناصية اللغة اليونانية ، والتعمق فى أسرارها . وتدل كذلك على الاحترام العميق

الذى كان يحمله أعضاء المدرسة لأفلاطون ، حتى أصبحت نصوصه فى منزلة الكتب المقدسة .

وطريقة أخرى فى التعليم هى التراسل مع المدارس المشهورة فى أثينا والإسكندرية وغيرها ، وكانت تعرض فى هذه الرسائل المشكلات الفلسفية المختلفة ، وتبسط فيها الآراء بحرية شديدة . وقد احتفظ لنا فرفريوس فى « سيرة أفلوطين » بنماذج من هذه الرسائل ، بعضها إلى لونجينوس و بعضها إلى أميليوس زميله بالمدرسة .

وأصبح فرفريوس بعد وقت قليل عضواً لا غنى عنه ، ويُقال إنه كان يعلم المبتدئين دروس المنطق ، لأن المنطق عنده كان الباب الذى ينفذ منه الطالب إلى الفلسفة . ثم كان يتجادل مع أميليوس كما رأينا ، واشترك معه فى نشر آراء الأستاذ ، و إذاعتها فى جميع الأوساط ، حتى لقد تأثر لونجينوس نفسه بفلسفة أفلوطين ، وأرسل يطلب نسخة من دروسه . بل لقد أثر فرفريوس فى أفلوطين نفسه . حقاً كان فرفريوس يحمل لأستاذه احتراماً يجل عن الوصف ، ولكن هذا الاحترام الشديد لم يمنعه من طرح الأسئلة ، وطلب الاستيضاح فى المسائل المشكلة . ولم يضق أفلوطين بهذه الأسئلة والاعتراضات ، بل كان يرحب بها ، حتى قال : «لو لم يسألنى فرفريوس ما وجدت اعتراضات تحتاج إلى حل ، وما وجدت شيئاً أدونه[1] » .

ولم يكن خط أفلوطين حسناً ، وكان يخطىء فى نطق بعض الألفاظ فى محاضراته ، وكذلك كان يخطىء فى النحو والهجاء إذا كتب، فقام فرفريوس بعبء كتابة دروس الأستاذ وتصحيحها .

فى صقلية

أمضى فرفريوس ستة أعوام فى مدرسة أفلوطين كان فيها ساعده الأيمن ، والناطق

(١) سيرة أفلوطين : ص ١٥ .

بلسان الفلسفة الجديدة ، مما أكسبه سعة فى الفكر وثقة بالنفس . فقد ظل حتى ذلك الوقت فريسة المذاهب المختلفة المتعارضة التى تعلمها فى البيئات التى نشأ فيهـا ، وتلك التى رحل إليها . فوقع فى حيرة بين خرافات الشرق وأساطيره وديانـاته ، و بين حكمة اليونان وما تبعثه فى المرء من روح شك ونقد ، مع سعة فى الاطلاع وعمق فى النظر . فلما لقى أفلوطين ، تفتحت له آفاق جديدة من التأمل والبحث ، وتعمق فى الحيـاة الباطنة ، وارتفع فى درجات النفس إلى أشدها نقاء ، وأكثرها صفاء ، وأعظمهاشرفاً. هذه الصوفية العقلية لم تلائم فرفريوس ، ولم يقو على تحمل الأعباء الـكثيرة المفروضة عليه فى المدرسة ، ولم يستطع أن يصبر على سيرة الزهد التى تميت الحواس فى سبيل السمو بالنفس وصفائها ، فأصيب من جراء ذلك بنوع من الماليخوليا والانقباض ، حتى لقد دار بخلده الانتحار .

وكان أفلوطين ، كما روى فرفريوس فى سيرته ، ذا بصر نافذ بدخيلة الأنفس ، كأنه يقرأ الأفكار أو يطلع على الغيب . قال فرفريوس « وذات يوم أحس أفلوطين بعزمى على مفارقة الحياة ، فاتجه إلىّ فجأة [وكنت أسكن فى داره] وأخبرنى أنّ رغبتى فى الانتحار لا أساس لها من الصواب ، و إنما جاءت عن مرض الماليخوليا ، ثم دعانى إلى الرحلة . فأجبته إلى ذلك ، وذهبت إلى صقليه . . . . . وتخلصت بذلك من الرغبة فى الموت ، ولو أننى حُرِمْت من البقاء إلى جوار أفلوطين ساعة وفاته[1] » .

لم يغب فرفريوس وهو فى صقلية عن نظر أستاذه ، فقد أرسل إليه بعض رسائل جديدة من تاسوعاته تلائم ولا ريب الحالة النفسية التى كان عليها فرفريوس . هذه الرسائل تتعلق بالسعادة والعناية الإلهية . يقول فيها أفلوطين إنّ الرجل الفاضل إذا عنى بجسده تحمـله أطول مدة ، كالحال فى الموسيقار الذى يظل يستعمل قيثارته إلى أن تبلى .

(١) سيرة أفلوطين : ص ١٤ .

وأرسل أفلوطين إلى فرفريوس بعد ذلك رسائل تبحث فى طبيعة الشر ، وفى تأثير النجوم ، وفى ماهية الحيوان وماهية الإنسان ، وفى الخير المحض .

ثم اختطفت يد الموت أفلوطين ، ولمّا يزل فرفريوس فى صقلية ، فحزن لذلك حزناً شديداً .

وفى تلك الأثناء طمعت الملكة الزباء (زنوبيا) فى إنشاء دولة عظمى يعيش فيها اليهود والمسيحيون والوثنيون جنباً إلى جنب فى سلام ، وأحاطت نفسها بحاشية من العلماء والأدباء ، ولبى لونجينوس دعوتها ، ورشح لها فرفريوس،وأرسل إلىفرفريوس يطلب إليه المثول فى بلاطها فى تدمر ، ولـكنه رفض الدعوة ، وكان ذلك من حسن حظه ، لأن الامبراطور أورليان هزم الزباء ، وأعدم حاشيتها .

استفاد فرفريوس من مقامه فى مدينة ليليبيوم Lilybaeum الواقعة فى غرب جزيرة صقلية ، حتى إذا استعاد صحته ذهب يطوف بأنحاء الجزيرة يرتاد أماكنها ، وأكبر الظن أنه عبر البحر وزار قرطاجنة . فهو يحدثنا فىرسالة « الامتناع عن أكل اللحم » أنّ فى الحيوان جزءًا عاقلا ، وأنها تشبهنا ، وأن علينا واجبات نحوها ، إلى أن قال : « ولما كنا فى قرطاجنة طار نحونا حَجَلٌ ، فأخذنا نطعمه ، فألفنا مع الزمن حتى بلغت به الألفة حد اللعب معنا ، والإجابة علىأصواتنا بصيحاته ، وهىصيحات غير مفهومة ، إلا أنها تختلف عن لغة الحجول المعروفة » . وهكذا انقلب فرفريوس من المرض الذى استولى عليه وكان يدفعه إلى الـكآبة والانقبـاض ، إلى البهجة والانشراح ، فتفتحت نفسـه للطبيعة ، وأصبح يحس بمفاتنها ، ويلاعب الطير ، ويتحدث إليه ، ويتأمل فى طبائع الحيوان . ولايجب أن نفهم من ذلك أنه انصرف إلى البحث فى الحيوان من جهة العلم الطبيعى ، بل من هذه الجهة التى نَبَّه إليها أفلوطين بوجه خاص ، نعنى الأخلاق والأحوال النفسية ، والفصل بين نفس الحيوان

و بين نفس الإنسان العاقل ، بين هاتين الدرجتين من الأنفس التى صدرت إحداهما عن الأخرى .

فلاغرابة أن يستجمع فرفريوس نشاطه ويستعيد صحته ، وقد أمضى أوقاتاً فى راحة واستجمام وهدوء نفسٍ ، أعانت عليها رقة الهواء وصفاء الجو فى صقلية ، فعاد إلى الاشتغال بالعلم ،وألف « إيساغوجى » ورسالة « فى التنازع بين أفلاطون وأرسطو » وأخرى «فيما يتوقف على أنفسنا » وطالت إقامته فكتب « رسالة ضد المسيحيين» ، ورسالة « فى الرد على أنابو » ، وأخرى « فى عودة النفس إلى بارئها » . و «فى الامتناع عن أكل اللحم » .

فى رئاسة المدرسة

متى عاد فرفريوس إلى روما ؟ وماهى الأسباب التى دفعته إلى ذلك ؟ هذا شىء لايمكن تحقيقه بوجه الدقة . وقد فقدت مدرسة أفلوطين بموت صاحبها مدبراً حكيما ، ولم يجد الطلاب رئيساً يوجههم و يرشدهم إلى طريق الحكمة . ولم يكن أصلح من فرفريوس كى يشغل هذا المنصب ، الذى عاد إليه وقد امتدت به السن ، واسترجع قوته وصحته . إلا أنه لم يحدثنا عن الدور الذى قام به فى المدرسة ، وسكت عن الإشارة إليه عندما دوّن « سيرة أفلوطين » .

و يقول إينابيوس إنّ فرفريوس كان يلقى محاضرات عامة ملأت روما دويا ، وجرى اسمه على كل لسان ، وذاع صيته ، فكان يوضح مذهب أفلوطين بما وُهِب من سعة فى المعرفة ودقة فى العرض . واشترك فى الاستماع لهذه الدروس كثير من علية القوم ،منهم« كريساريوس» الذى أهدى إليه « إيساغوجى » ورسائل أخرى .